محمد علي الكبير

منشئ مصر الحديثة

نظم

عبد الحليم المصري

مطبعة مطر بالمرور بمصر

محمد علي الكبير
منشئ مصر الحديثة

نظم

عبد الحليم المصري

مطبعة مطر بالمرور بمصر



حضرة صاحب العظمة

السلطان فؤاد الاول

مولاى حضرة صاحب العظمة ولى النعم

هذا التمثال: أثر من بناء الأذهان للأذهان، باق على الأزمان، ما بقي بنو الانسان، بناه الشعر بجوهره، وعلاه بأسطره، تمثالا لجدك الأعلى «محمد على الكبير» منشىء مصر الحديثة

تمثالا يقام فى حظائر الرءوس، وخواطر النفوس، للعبر حوله زحام، وللمواعظ أمامه قعود وقيام، لا مجرد تمثال، لرجل كسائر الرجال، ولكنه مَلِكٌ ولدته السنون القشاعم، فى حجور العجائب والعظائم، فدرج بين مضارب الصوارم وأنياب الأراقم، فامتنع، واتسع، وصال، وطال. وأيٌّ من أبناء الألبان، قبض للملك على صولجان، ونازع على العرش خاقان، يا أيها الهرمان، أنتما الشاهدان، فبأي آلاء ربكما تكذبان

تلك ، يا مولاى ، مرتبة جدك ، ليس فوقها الا النبوة
فى مراتب البشر ، وسبحان من له القضاء ومنه القدر

وهذه ، يا مولاى ، صنعة شاعرك ، وخادم بابك ، غاية ما وصلت اليه قدرته أهداه اليك ، وسجّله بين يديك ، قصائد ، نصبت للعقول مصائد ، وفرائد ، جليت للنحور قلائد ، أثر اليوم لغده ، ودرس الأب لولده ، ذكرى لأمتك، وتذكار لدولتك ، أدام الله أزمانها ، ومكن سلطانها
قبلتُ البساط بين يديك ، وسلام الله عليك ؟

عبدكم وشاعركم

المصرى

محمد علي باشا



مصر	منقذ
٣٣٠	٨٩٠

١٢٢٠ هجرية

تاريخ سنة توليته

ايجاز

	سنة هجرية	سنة ميلادية
مولده فى اوبار (١)	١١٨٣	١٧٦٩
قدومه الى مصر أولا	١٢١٣	١٧٩٩
« « « ثانياً	١٢١٥	١٨٠١
توليته على مصر	١٢٢٠	١٨٠٥
تأييده فى الولاية	١٢٢١	١٨٠٦
ابادته للماليك بمذبحة القلعة	١٢٢٦	١٨١١
تجريدة الحملة على الوهابيين أولا	«	«
« « « « ثانياً	١٢٣١	١٨١٦
« « « السودان	١٢٣٥	١٨٢٠
« « « الشام	١٢٤٧	١٨٣١
اخلاء الشام	١٢٥٦	١٨٤٠
وضعه لاول حجر في القناطر الخيرية	١٢٦٣	١٨٤٧
آخر عهده بالولاية	١٢٦٤	١٨٤٨
وفاته	١٢٦٥	١٨٤٩

(١) ذكر المؤرخون انه ولد فى قوله وقد اثبت لى صديقى الاستاذ الكبير نور الدين بك مصطفى الشاعر انه ولد باوبار فى اقليم قوريجه بالبانيا

محمد علي

رهنَ الطفولة راجي الملكِ منتسبُ
الى العلى نفسهُ أمٌّ له وأبُ

لما يرثْ عن أبٍ جاهاً ولا حسباً
بل كان يورثُ عنه الجاه والحسبُ

تحت الحنيةِ من يسراهُ ملتهبٌ (١)
لو مسّه الماء في تُمناهُ يلتهبُ

في بردهِ قدرٌ ، في طيه خطرٌ ،
آماله سفرٌ ، آراؤه عببُ (٢)

وفي إرادته ملكٌ يحاوله
لا رتبةٌ دونه تُنغى ولا لقبُ

---

(١) يعني قلبه (٢) العبب البحر

كأنما حبوه بالعرش متصل
من مهده واليه الخطو والسبب
ما بين أقرانه كادت همامته (١)
الى المضارع من آماله تثب
عناصر الخمر لما امتاز أشرفها
فى معرض الكاس قرت واعتلى الحبب (٢)
وما درت مصر يوما أن جارتها (٣)
تبنى لها قوليا أمره عجب
ولا درت أمه أن الذى حضنت
له السرير بظهر الغيب يرتقب
ترجو له فى صفوف الجند مرتبة
وفى رجاء ابنها ما دونه الرتب
لو أنها علمت ما فى سريرته
لأيقنت أن ما يعتاده لعب

(١) الهمامة هى الهمة (٢) نقاقيع تعلو وجه الماء أو الخمر
(٣) أى جزيرة قوله

تلك الحصاةُ(١) لغيرِ الملك ما خُلِقت
كالدُّر ليس لغيرِ الحَلْي يُنتخبُ
كان الصبا جنةً تُرعى مثامرها
في ظلّها الحيوانُ الماء والعُشُبُ
يجري بها في رغيد العيش من خلعوا
ثوبَ الحياء ويُقْفِي عنهم الأدبُ
فما رعى رعيَهم يوماً ولا وَجدتْ
باباً الى نفسه اللّذاتُ والطّربُ
يا حسنُ، يا خمرُ، هل أعيا كما طلباً
هذا الأبيُّ وإني منكما تَعِبُ
عرضتما فثناهُ عنكما عِظَمٌ
ما للثرى وعينٍ كفُّها ذهبُ
قضى على سيفه مَنْ قلبه معهُ
ما القلبُ والسيفُ إلاّ الماء واللّهب

(١) العقل

كم استرقّ الهوى من ضيغم شرسٍ
فأسلمت فى يديه للهوى قُضُبُ
وغادةٍ سلبتْ ملكاً وكان له
لولا هواهُ ولولا لحظها السّلبُ

نهوض (١)

بالشرق صادفه ملكٌ مهدّمةٌ
أسوارُه فانبرى عجلانَ يستبقْ

(١) كان والى مصر فى ذلك الحين خسرو باشا ولما أراد أن يخلص مصر من أيدى المماليك أرسل اليهم طاهرا باشا رئيس الجنود الالبانية الذين بقوا بمصر بعد حرب الباب العالى مع فرنسا وكان محمد على يلي طاهرا باشا فى الرتبة على اولئك الجند فلما هزم طاهر باشا امام المماليك أمده الوالى بجيش آخر بقيادة محمد على باشا فلما هزم أيضا أراد خسرو أن يحاكمه وقصد بذلك اغتياله نظراً لما كان يتوقعه من آمال محمد على فامتنع محمد على عن المثول بين يدى خسرو باشا ومن هذا الحين بدأ ينمو الحقد بين خسرو وبين محمد على ولما كانت الحرب لاتخمد لها نار ضج عساكر الترك وشغبوا على خسرو وطلبوا مرتباتهم المتأخرة وانضم طاهر

تمدّدتْ أمراءُ فيه واقترفتْ
إنّ الضعاف أشدّاءُ اذا اتفقوا
غراءُ من فرص الأَجيالِ سانحةٌ
من الحوادثِ يعلو أُفقَها غسق
وخلفَ ذلك عينٌ غيرُ غافلةٍ(١)
على سنا الملك فيها رُكِّبَ الحدق
سرى بمصر نسيم من محدّقِها
شذا الإمارة من أنفاسه عَبِق
كانتْ لها الطرق شتّى فاشرأبَّ لها
فتىً فسُدَّتْ على طلابِها الطُّرق

الى العصاة وفر خسرو ووقع طاهر فيما وقع فيه خسرو من العجز عن تأدية مطالبهم فقتل وابتدأ ظهور محمد على فاتحد مع رئيس المماليك وهو البرديسي على خسرو فأسره وسجنه ثم اتحد مع البرديسي على الألفي فاخرجه الى سورية ثم اظهر الخضوع للدولة وحرض الناس على البرديسي فاخرجه الى سورية ايضا (١) تلك عين العبقرى محمد على

تحتَ الضلوع أُوارٌ من حميّته
بجرّه كاد حتى العزم يحترقُ
هـذا الذي قدّرت مصرٌ له فمشى
على العُباب ولم يظفرْ به الغرق[1]
ومن تأخر عنه رزقُه عمُراً
تأخر الموت حتى يرزقَ الرّمقُ
من قبل أنْ يخلق اهـتزّ الزمان له
وعاش قومٌ ولم أحسبهم خلِقوا

المماليك

أليسَ عن مصر من باقٍ يحدّثني
هل أنتَ، يانيل؟أم هل أنت، ياهرمُ؟
ياشاهدانِ وما قالا بما شهدَا
كم شاهدٍ صمتُه في موقفٍ كرمُ

(١) عند حضوره مصر لاول مرة غرق ونجا

ما بالُ أرضكما نهباً لزائرِها
فكلُّ من وضعوا رحلاً بها حكمُوا
طغى المماليكُ فيها فوق طاقتهمْ
فكان ما شيدوا المجد ما هدَموا
أتلو صحائفَ سوداً منْ رِوايتِهمْ
الى صحائفَ حمرٍ خطّهُنَّ دَمُ
تكادُ أدمع قتلاها تفيضُ على
يدى ويصرخُ من بين السُّطور فمُ
لا عهدَ للقوم بالملكِ الذى ملَكُوا
الجاهلون قضَوْا فاعذرْ اذا ظلموا
لعزّة الملك هِيبُوا لا لأنفسهم
كذاك يُخشى وإن لم يُسكنْ الأجمُ (١)
عهدٌ به لو توارى وجهُه خجلاً
اذا تراءتْ عهودٌ وهى تبتسمُ .

(١) جمع أجمة وهي غاب الاسد

حالة المماليك

فى كلِّ ناحيةٍ والٍ بعسكرِهِ
ولا ولايةَ ان طلاّبُها كثروا (١)

(١) كانت مصر فى العهد الذي ظهر فيه محمد على فوضى لاحكومة فيها وان كانت فى الظاهر تحت سيطرة الباب العالى . فالوالى التركى يشخص الى مصر وجل همه جمع الاموال التى اشتري بها الولاية فاذا فرغ منها فكر فى قرب موعد عزله فأخذ يجمع شيئاً ليدخره لنفسه فهو بذلك فى معزل عن مصر وأهلها لاهم له الا المحافظة على حياته وجمع الاموال بالسيوف والسياط . والمماليك فى الجانب الآخر حكومات متعددة فحكومة الالفى وحكومة البرديسي وحكومة جاهين بك وحكومة ابراهيم بك الكبير وغيرهم كل واحد منهم يريد أن يقتال أخاه والكل يريدون أن يغتالوا الوالى ، والباب العالى يريد أن يغتال الجميع فانه ما كان يترك الوالى أكثر من عام خوفا من انشقاقه على الباب العالى وأهل مصر فى ذلك العهد غنيمة الجميع تحلب بالسيف أموالهم وتذبح فى السلم رجالهم فهم فرق وشيع يحارب بعضهم بعضا تحت ألوية مختلفة وقد حارت الدولة العلية كما حار نابليون في استئصال شأفة المماليك حتى بعث الله لمصر مجددها العظيم محمد على

جـدّاء مصرَ بحدِّ السيفِ ملبنةٌ
وهل يُرادُ على إثماره الشجرُ ؟ (١)

على الجلود يخُطُّ السوطُ آيتَه
ويقرأُ السيفُ في الأعناق ما سطروا

والحربُ بين أبٍ وابنٍ مؤجّجة
تبكي الأواصرَ والأرماحُ تشتجرُ (٢)

قضوا على مجدِ مصرٍ في محبتهمْ
الجاهلون وإنْ همْ أخلصوا خطرُ

فرعون لاقته تحتَ الارضِ دولتُه
عنـدَ البلى يلتقي البانون والأثرُ

دمع العصور عليها غيرُ منقطعٍ
أولاَ فيمَّ عساهُ يسكبُ المطر ؟

(١) الجداء هي الناقة التي لاتحلب والملبنة هي اللبون
(٢) الأواصر جمع آصرة وهي القرابة

انْ لم يرثْ ولدٌ عن والدٍ أثراً
فخيرُ ماورثَ ابنٌ عن أبٍ خبرُ
حارت سيوفُ بنى عثمانَ فى دمِهم
وإنه لامرئٍ بالغيب مدّخر (١)
قام الحسام خطيباً فوقَ أرؤسهمْ
وليسَ فى حدِّه عىٌّ ولا حصر (٢)،
هبْ للمنيةِ ذنباً فى تخطُّفهم
إن تعتذر أيهم حى فيغتفرُ ؟
عرشٌ هوى فتلقاه فتىً عجلٌ
وقد تُتاحُ (٣) لغيرِ الغائصِ الدُّررُ
المستحيل على الأيامِ أمكنهُ
رُم المحالَ ونلْ ان ساعد القدَر

(١) أى كان الله ادخر دم المماليك فى عروقهم ليهدره محمد على

(٢) الحصر عدم القدرة على الكلام

(٣) أى تقدر

ابادة المماليك (١)

تسلوا عن الملك والحول الذى ارتعدت
فرائصُ الدهرِ واعتلتْ لهُ الدُّولُ

(١) لما رضى الباب العالى عن محمد على ووثق به أراد أن يتخذ منه عوناً على اصلاح شؤونه وفى ذلك الحين كان الوهابيون قد امتد سلطانهم على معظم بلاد العرب بما فى ذلك الحرمان وساءت حالة الشريف ورأت الدولة ان سلخ الحرمين من أملاكها خطر عليها فطلبت الى محمد على أن يكفيها أمرهم وهو كان يري ذلك أيضاً ليزداد في استجلاب رضى الباب العالى عليه ولكن ما كان يستطيع أن يوجه جيوشه الى بلاد العرب وسيطرة المماليك كما علمت وهم يجينون الفرصة للقضاء على ملكه فبنى العزيمة على ابادتهم وقد كان فى موقف من اثنين لا وسط بينهما اما الملك واما القبر . فأسر عزيمته وأعلن انه نظراً لخروج الجيوش المصرية الى فتح الحرمين تحت إمرة ابنه طوسون يحتفل بهم ليقلد أمير الجيش وسام الشرف السلطاني ودعا جميع الضباط والاعيان وفرق الجيش والمماليك جميعاً الى القلعة وفي يوم الاحتفال أفضي بسريرته الى حسن باشا وصالح قوج وعند دخول تلك المشاهد أمر بذلك الى ابراهيم اغا (البواب) ودخل الموكب على هذا النظام مبتدئا بعساكر

عَن المماليكِ والدُّنيا بقبضتِهِمْ
وأينَ فى مصرَ ماقالوا وما عملوا ؟
سلوا المنازلَ : أينَ الملكُ ، أينَ مضى ؟
أينَ الأسرةُ ، أينَ القومُ ، أين؟ سلوا !
أَين الغَـوانى غوانيها وما خلعتْ
من الشبابِ وأينَ الحَليُ وَالحُلَلُ ؟

الدلاة فالانكشارية فالجنود الالبانية بامرة صالح قوج ثم (المماليك) فالجنود النظامية فلما حصر المماليك في الدرب الذى بين البابين الاعلى والاسفل أومأ الى رجاله فانحوا على المماليك ولم يبقوا منهم أحدا وفى تلك المذبحة قتل شاهين بك كبيرهم واضطربت القاهرة واخذ الجنود يسلبون وينهبون فنزل هو وابنـه طوسون على جواديهما يمنعان الجنود ويقفانهم على حد النظام

وفى الساعة التى كانت فيها مذبحة المماليك وصلت الى جميع حكام الاقاليم أوامره بقتـل كل من يعزون به من المماليك : فانظر كيف كان حرج موقفه اذا خاب

وكان ذلك فى أول مارس سنة ١٨١١ وبذلك انتهت دولة المماليك وقرضت

أخنى على ركنها العالى فهدّمهُ
ريبٌ من الدهر إلا أنهُ رَجُلُ
فى جنبِ حيلتهِ تنسى عزيمتهُ
وحيلةُ المرءِ فى الهيجاءِ لا الأسَلُ
إحتلْ لخصمِكَ إن تغلبْكَ قوته
عونُ الضعيفِ على ذى القوّةِ الحِيلُ
لم تغنِ عنهمْ عواليهمْ وعسكرُهُمْ
والمرهفاتُ على الأعناقِ تقتتِلُ
والدربُ بالقلعةِ انهالتْ جوانبهُ
موتاً كما انهالَ من جُدرانِهِ الطَّلَلُ
يسربُ المنيةِ طلاّعٌ بأنجدِهِم
ساطٍ على الهامِ لم تُنذر بهِ العِلَلُ(١)

(١) يقال فلان طلاع أنجد أى يعلو كل مرتفع



محمد على فى مذبحة القلعة

صانوا الدماءَ له حتى اذا خفقتْ
ظباهُ حطّوا من الأرواحِ ما حملوا
مشوْا تفوح غواليهمْ وما احترقتْ
وإنما تحتها من نورِهم شعلُ
الى الوليمةِ أفواجاً فما شربوا
غيرَ الدماء وغيرَ الموتِ ما أكلوا
لاموه فيها وقالوا ماكرٌ حذرٌ
لولا الحجا لاستوى الرئبال والبطلُ
اللهُ دبره مكراً لخاقِ بهم
وقد يحيقُ بأهلِ السوءِ ما فعلوا

ثبات ملكه

تلك الاريكةُ قد كانتْ مزعزعةً
حتى أُبيدوا فقرّت تحتها العمدُ
الى فتاها تخطتهم حظيرتُها
أولى الضواري بسكنى الغابة الأسدُ

أسرّها لهمُ حيناً نجرّدها
عزيمةً لايقى من حدّها زرد

محمد وحدَه ماكان صاحبها
وإنما كان فيها للالَه يد

ليست على ربِّها مصر بهينة
نِعم العشير ونعم النهر والبلد

ما عاقني من هواها أن يدى صفرت
منها خسبيَ فيها الأهلُ والولدُ

وغارسُ الروض ينميه ويحرُسهُ
وزائر الروض يجنى خير ما يجدُ

دمعُ المهاجرِ فى أيدى الحيا صحف
تُتلى على مسمع الوادى فيرتعد

مزاحموكَ كثيرٌ فى ولايتها
ياواحداً كادَ فيهِ ينتهى العددُ

الاسطول على الجمال (١)

فاعجبْ لهمةِ نفسٍ فوقَ طاقتِها
بحملها كادَ عزمُ الدهرِ ينخذلُ

في البرِّ في البحرِ ملءُ الناسِ شغلهمُ
فوهاه يخرسُ فيها العلمُ والعملُ

واعجبْ لأولِ أسطولٍ سفائنُهُ
على النجائب في البيداء ترتحلُ (٢)

وما رأتْ قبلها الأمواه أو سمعتْ
انَّ الأساطيلَ مماَّ تحملُ الإبلُ

حتى رماها بمثلِ الدهرِ فارتعدَتْ
مماَّ دهاها وقالتْ سيِّرَ الجبلُ

سفينةَ البحرِ باسمِ اللهِ تحملُها
سفينةُ البرِ فاعجبْ كيف تنتقلُ

(١) لما عزم على حرب الوهابيين بنى أول أسطول في مصر في العهد الحديث وحمله على الجمال الى البحر الاحمر (٢) النجائب هي الابل

رأى الخليجُ جذوعَ السنطِ مائلةً
بينَ الأساطيلِ يحدُو سربَها الأملُ
ألقتْ مراسيها واليمُّ (١) مرتجفٌ
يقولُ ويكِ أأنتِ الحادثُ الجللُ
وقائدُ الشرقِ ضاحي الوجه مبتسمٌ
يقولُ ، لا ، ذاكَ من أعمالِنا مثلُ

حرب الوهابيين (٢)

اذا ذكرتُ اسم إبراهيم بينكمو
فاقضوا حقوقَ المعالى لاَسمه وقفوا

(١) اليم البحر (٢) الوهابيون طائفة تنتسب الى عبدالوهاب صاحب المذهب المشهور وقدولد هذا الرجل العصامى عام (١١٠٨هـ-١٦٩٦م) بالعينة من اقليم العارض ومذهبه هو أرقي المراتب التى يصل اليها الاسلام فهو فى الحقيقة طريق أهـل السنة والجماعة واساسه توحيد الله ورفض تفاسير القرآن التى لم تأت من طريق السنة ونبذ كل اعتقاد بولي أو نذر لقبر وتحريم الخضوع للموتى ووجوب الاقامة لاحكام القرآن وحدود الله كما هى وتحريم لبس الحرير ووجوب التقشف فى العيش

سيفٌ اذا أنكرته الأعين استبقتْ
الى جواحدها الاعناقُ تعترفُ

الى غير ذلك ولما قال عبد الوهاب بمذهبه اقبل عليه سكان بلاد العرب واجلوه واستظلوا برايته فكان ذلك بمثابة اقامة ملك جديد فى بلاد العرب وناهيك بالملك الذى يبنى على الاعتقاد الدينى والعواطف الاسلامية المحضة ولقد وجد فى أول أمره بعض الاضطهاد ككل أصحاب المبادىء الجديدة الا انه عرج على (الدرعية) احدى مدن نجد واستجار حاكمها (محمد بن سعود) وبسط اليه مذهبه فاعجب به ودخل فيه ونادى بنشره وجعله ذريعة الى اعتزاز سلطانه

وفي هذه الاثناء توفى صاحب المذهب عبد الوهاب سنة (١٢٠١ هـ - ١٧٨٧ م) وقد عمر خمساً وتسعين سنة وأخذ سعود بنشر المذهب وتبعه ابنه عبد العزيز فى ذلك وفتح مكة ودخل الحرمين وأصبحت بلاد العرب كلها في قبضته ولما رأى الباب العالى انسلاخ تلك البقاع عن ملكه وجه أمره الى محمد على ليفتح بلاد العرب من جديد وقد كان أمر ابنه طوسون على جيوشه الا ان الله كتب فى علمه الا يفتح هذا الملك العظيم من بلاد العرب الي الشام فالاناضول على يد ابرهيم فوجه أبوه اليه بامرة الجيوش فاسر عبد الله سعودا بن سعود الثاني وفتح بلاد العرب باسم الدولة العلية

ماضٍ بكفِّ أبيه كلّما ضربتْ
يهوى بهِ شرَفٌ يسمو به شرَفُ
إذا أطلَّ على قومٍ وهم خلفٌ
من كُوْة النقعِ خلاّهمْ وهمْ سلفُ
أو خالفته المنايا فى تخطّفِهمْ
فإنما هيَ فى الهيجا لهُ هدَفُ
وإن تألّق فى آفاقهم حسبوا
ان السماء عليهم بالرَّدَى تكِفُ
سل الجزيرةَ كمْ سدّتْ حلاقِهَا
دَوالِفُ الخيلِ والفَضفاضةُ الزغفُ (١)
أبوابُها سورةٌ للفتحِ ثانيةٌ
قِلاعُها أسطرٌ أسوارُها صحُفٌ
يَنْتاشُهنَّ (٢) قريعُ الموتِ ممتنِعٌ
على الأسنةِ لايُرعى له كنَفُ

(١) دلف فى الحرب أي تقدم والفضفاضة الواسعة والزغف الدروع المحكمة (٢) انتاش تناول

حتى تكشفنَ عنْ أهلِ القبابِ له
كما تكشّفَ عنْ درّاته الصّدف
سلْ الفتي ابنَ سعودٍ أينَ مذهبهُ
وتابِعوه وأينَ الدّارُ والخلفُ ؟
ما كان فى حكمهِ جورٌ ولا عَسفٌ
ولا بمذهبه زيغ ولا جنفُ
وإنما كان فى استظهارهِ خطرٌ
على الشآم وفى استقلالِه تلفُ (١)
عَصى الخليفةَ فاستعدَى على دَمِه
نسراً من الانسِ للارواحِ يختطِفُ
إن قال فى الأسرِ أعوانى وأينهمُ
يقلْ لهُ لا تسلْ أعوانُكَ انصرَفوا

(١) لقد كان من المؤكد أن يمتد حكم الوهابيين الى الشام بعد أن وقعت كل بلاد العرب فى أيديهم وهـذا ماخافه الباب العالى لانهم أغاروا على أطراف العراق وفشا مذهبهم فى غير بلاد العرب وقدكانت محاربته سياسية لادينية فان مذهبه نقى طاهر كما تقدم

اليومَ أمَّكَ إِبراهيمُ وهوَ إِذا
أمَّ الشّمالَ يكادَ القُطبُ ينحرِف

فتح الشام (١)

محمدٌ فوقَ ملكِ النيلِ همتُهُ
فلا تلمهُ اذا ماساقهُ الطمعُ

(١) قدمنا ان محمداً علياً كان طلب الى الباب العالى أن يعطيه ولاية عكاء مكافأة له على المساعدات الحربية التى قدمها اليه فلم يلتفت اليه الباب العالى فلما كانت سنة (١٢٤٥ هـ — ١٨٢٩ م) أعلنت الروسيا الحرب على الدولة فطلبت هذه الى محمد على أن يمدها بجيوشه وأساطيله فلم يجب لها نداء أيضاً اذ رأى ان دماء جيوشه وآمال مملكته تراق هدراً بغير مكافأة ولا نتيجة تعود عليه بل ورأى ان الفرصة قد سنحت لان ينال بالقوة مالم يبلغه بالتلطف واللين ففتح أبواب الحرب على الدولة وحملها على محاربته بعد أن استشار عبد الله الجزار والى عكاء وأمره بارجاع بعض المصريين الذين هاجروا الى عكاء وفى الحقيقة انه أوجد هذه الاسباب ليدير رحى القتال وقد استنجد الجزار بالدولة فانتهى الامر بان أعد محمد على حملته على الشام وخرجت فى سنة (١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ م) وكان جيشه يبلغ الاربعين



ابن سعود فى قبضة ابراهيم باشا

اذا اشرأبّت به نحوَ الشآمِ منىً

فانما ملء صدر المرء ما يسَعُ

ومصرُ ما اشتدَّ فيها قبلهُ ملكٌ

إلاّ وأصبحَ نحوَ الشامِ يندفعُ

الف مقاتل بامرة ابراهيم باشا ومعه سليمان باشا المعروف (بالفرنساوى) وهو أحد جنود نابليون الذين بقوا بمصر وأسلموا وكتب الله أن يفتح معظم بلاد الشرق على يديه ويكون من بناة هذا الملك الضخم فى الشرق

خرج ابراهيم بجيوشه ومدافعه وأساطيله واخترق الصحراء الى العريش واستولى على غزة ويافا وعكاء وفى أثناء حصارها صدر الامر بعزل محمد على عن ولاية مصر وجزيرة كريد وجيوش ابراهيم تتابع الفتح : ففتحوا دمشق فحمص فحلب فاذنة وتم فتح الشام جميعاً ثم تقدم بجيوشه ففتح أكثر الاناضول والهزيمة حليفة جيوش الاتراك فى جميع المواقع فلما هدد بروسة وساخ آسيا الصغري من الباب العالى وفزع خوفاً على ضياع مابقى من ملكه تداخلت الدول ومدت روسيا يد المساعدة للدولة العلية وانتهى الامر بابرام (اتفاق كوتاهية) القاضى بتولية محمد على باشا على بلاد سورية مع مصر ووقع الصلح على مارأيت

وفي احتفاظك بالملكين معذرة

يضيع فى جنبها الاصحاب والشيع

كلتاهما شطر أخرى في جوارِها
وكيفَ بالزّاد دونَ الماء ينتفعُ
وفي احتفاظِكَ بالملكين معذرةٌ
يضيعُ في جنبها الأصحابُ والشيَعُ
خذ بالأسنّةِ ما تستطيعُ حوزتهُ
فانما المُلكُ بأسٌ والوغى خدعُ
تقولُ هزّ القنا في وجهِ سيّده[1]
عند المنى يستوى المتبوعُ والتّبَعُ
وهذه سنّة الدنيا وشِرعتُها
لا ينتهي الرِيُّ عن حيٍّ ولا الشّبِعُ
مهما جمعتُ فهي غيرُ ما بيدي
والناسُ همهمُ في غير ما جمعوا
كم باتَ يَزجرُ طيرالشامِ إن سنحتْ
علَّ القطاةَ على أفحُوصها تقعُ[2]

(١) أي في وجه الخليفة (٢) الافحوص وكر القطاة

أغرته بالشام نفسٌ لا قرارَ لها
وكان عنها اتقاء العهدِ يمتنعُ
حتى اذا حرّكتهُ من فروقَ يدٌ (١)
كما يُحرِّكُ رأسَ الحيةِ الفزعُ
ثارت بهِ النفسُ حتى كادَ يحملهُ
الى الشآم على أكتافِه الزّمعُ
وحسبهُ لابنهِ من مصرَ مغلقةً
على أساطيرها بالشّام يطّلعُ
سيوفه سابقاتٌ في تِلاوتِها
فالبيضُ تقرأُ والابطالُ تستمعُ

(١) فروق هى الاستانة وتلك اليد هي يد خسرو باشا الذى كان والياً على مصر وخلعه محمد على باشا كما تقدم فانه صار اكبر رجال الدولة نفوذاً بل كان المستشار الاكبر للخليفة وكان دائماً يوغر صدره على محمد على ليعزله عن مصر أولا لينتقم لنفسه وثانيـاً لينال بذلك ولاية مصر بدلا من محمد على وخسرو باشا هو الذي ساعد على قطع العلائق بين الدولة وبين محمد على فوصل الامر الى ما انت راءه

عكاءُ بكرٌ بحجرِ الشامِ مُحصَنة
ليست لغيرك فى الهيجاء تفترعُ [١]
ردّت كتائبَ (نابليون) [٢] خائبةً
يكادُ لونُ ظباها البيض يمتقعُ
حتى اذا قيلَ ابراهيمُ يمّمها
خارت وكادت على سكانها تقعُ
كأن زمزمةَ [٣] الأعناقِ ان وقعتْ
آنافُ سحبٍ على الأعلامِ [٤] تجتدعُ
أنى تمل عن طريق الضربِ طالمها
وجهٌ بفيه لسانُ الموتِ يندلعُ

(١) تفترع . تفتض (٢) ذلك ان نابليون فتح الشام جميعاً الا عكاء فانه حاصرها عدة أشهر واستعصى عليه فتحها وكان ذلك سبب يأسه من حكم الشام ومن هنا جري المثل الشرقي المعروف (فلان فتح عكاء) ؟ ؟ أى هل هو أتى بالمستحيل لانه استحال على نابليون فتحها

(٣) الزمزمة الصوت (٤) الأعلام الجبال

بين الخميسين والأرواحُ مجدبةٌ
للطيرِ والوحشِ مصطافٌ ومرتَبعُ
كان البهاليل[1] من أبناء مِصرَ اذا
شدُّوا الرحالَ يقولُ الفتحُ لا تضعوا
عدوْ السلاهب[2] تحتَ النقعِ عوَّدَهم
أن ليسَ غيرَ ظهورِ الخيلِ مضطجعُ
وربَّ راسيةٍ كالطودِ زعزعها
من قبلهم وتولىَ هدمها الجزَعُ
ان كبّروا ظنت الآطامُ[3] أنْ دلفت
لها المنابرُ في الهيجاء والجمَعُ
أو أبصروا في أضاةِ[4] الحربِ صورتهم
لولاهمو ولوا الأدبارَ أو صُرِعوا

* * *

(١) البهاليل جمع بهلول وهو السيد الشريف فى قومه
(٢) يقال فرس سلهب أى طويل وخيل سلاهب
(٣) الآطام الحصون (٤) الأضاة المرآة

مُحمدٌ وكتابُ العزلِ في يدهِ
يكاد للملكِ من خفقانٍ ينتزعُ (١)
لولا ثنت جيشَهُ عن قصده دُوَلٌ
ملوكهنَّ على تفريقه اجتمعوا
لبدّلتْ صحفُ التاريخِ واتصلتْ
بنا مواعظُ فيها خيرُ ما يَزَعُ (٢)
وكان أعوانُه غيرَ الألى عُرفوا
وكان ما صنعوا غيرَ الذي صَنَعوا

* * *

ياليتهم نزعوا ملكاً لمصرَ سوى
فروقَ واحتفظوا منهُ بما نَزَعوا
لكن أباحوا على الأسياف محصنةً
منَ الخلافة كانت وهي تمتنعُ

(١) ذلك أنه صدر الامر بعزل محمد علي حين انشقاقه على الدولة وانتهى الامر بالاتفاق على اعطائه ولاية الشام على مصر
(٢) يزع أي يردع

محمد والعرب

طارَ الكرى عن جفونِ الغرب اذ بدأت
بالشرق مملكةٌ سمراء تزدهرُ

وَهالهُ أنَّ شعباً من شعائرهِ
زُرقُ الجلابيبِ في الآفاق ينتشرُ

وأنَّ من ظفرت حتى الرُّعاةُ بهم
صالوا وصارُوا على الدُّنيا وهم خضرُ

وأنهم بيتيم معدم شرفوا
وقبلهم بيتيمٍ شرفت مضرُ

تشابهت أربعٌ من معجزاتهما
يُتمٌ وأُميةٌ واسمٌ ومتجرُ

فذاك للدين من آياته صحفٌ
وذاك للملكِ من آياته السُّررُ

فمن كريدٍ الى نجدٍ الى حلبٍ
الى الأناضول فالسودان منتصرُ

بجيش مصرَ لفتحِ الشرق مستبِقٌ
وباسمِ مصرَ لفتحِ الغرب مبتكرُ

الحظوظ والالوان

طارَ الكرى عن جفون الغرب اذ بدأت
بالشرق مملكةٌ سمراء تزدهرُ
وقالَ هل جارةُ السودان تعدلُنى
انّ البياضَ قد امتازَت به الغُرَرُ
السودُ فى الحكم دون البيض منزلةً
يُعطى الحظوظَ على ألوانه البشرُ
وما درَى أن حسن الثوب صبغتهُ
والسحبُ مطّرد فى جُونها المَطرُ
ان السّواد قد امتازَ البياضُ به
لولا سوادُ الدُّجى لم يُعرف القمرُ

والخالُ فيه اسمرارٌ كلُّه لَعَسٌ (١)

والعينُ فيها سوادٌ كلهُ بصَرُ

لسنا من السمر أوهَبْنا فإنّ لنا

بالملكِ عهداً وبعض العهد يدّكَرُ

والسُّمرُ قد مَلكوا دهراً فما ظَلموا

ولا استبدُّوا ولا جاروا ولا غدروا

وانّما عثرتْ خيلُ الجدُودِ بهمْ

وليسَ ينفع فيما قُدِّر الحذَرُ

إِن ساءَ حظ رجالٍ ساءَ فعلُهمو

حتى اذا نفعوا ضرُّوا وما شعروا

القناطر الخيرية

لمّا أطاعك ما بالشّرق من يَبسٍ

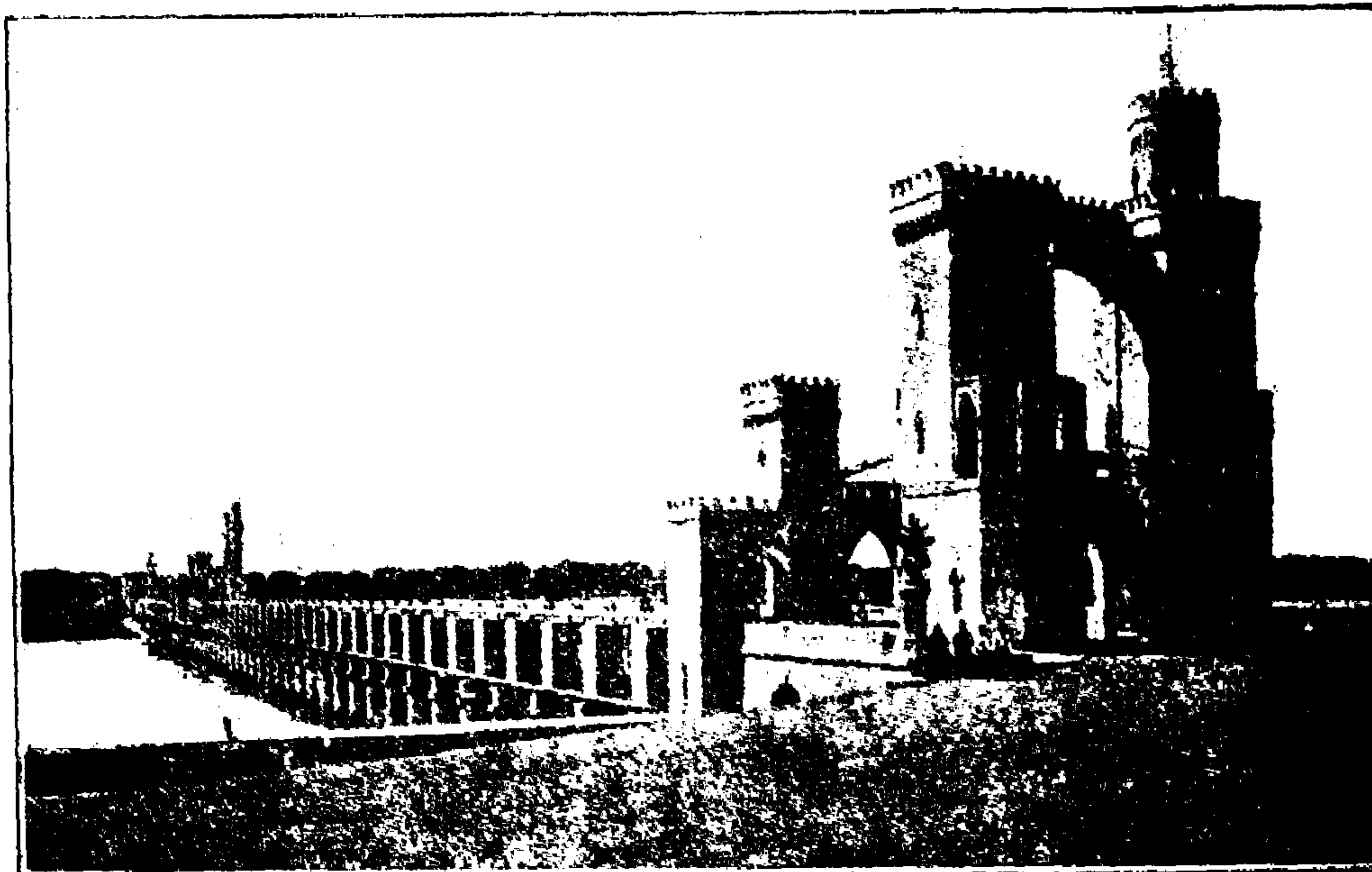
أمسى به الماء فى الأنهار ينتظرُ

---

(١) اللعس اسمرار يوجد على الشفة وهو من علامات الجمال وهنا استعاره للخال

توقع الأمر واستقرى بوادره
وكادَ من هول ما يخشاهُ يستعرُ
والنيلُ لم يتعوَّد أن يقيّدهُ
أمرٌ ومنه حياة الشرق تنهمرُ
وكان قبلكَ معبوداً يدين له
فرعونُ مصر وتقضي عنده النُذُرُ
ناديتَ ـ يانيلُ ـ فارتجّتْ شواطئُهُ
إنى أمرتُك فانظرْ كيف تأتمرُ
ألقِ الدلالَ على جنبيك وامضِ على
حكمى ولا يتناولْ خدَّك الصعَرُ
إن كان يعبدُك الطاغوتُ من فرَقٍ (١)
فأنت فى الأسرِ عن ماضيكَ تعتذرُ
قد كنتَ يانيلُ تجرى كيفَ شئتَ بها
يشكوكَ عمرٌو . ويرجو ربَّه عُمَرُ

(١) الفرق الخوف



القناطر الخيرية

أما وقد صفدَت كِلتا يديكَ يدى
فسِرْ بأمريَ واعلمْ انني القدَرُ
سمتَ العصيّ لجاماً وانطلقتَ به
عجلانَ حيث ترى أن ينبتَ الشّجرُ
وضعتَ فى حلقه سداً لتسكتهُ
فليسَ ينطقُ مالم تدعه الغُدرُ
وكيفَ الماءُ أن يجتاح راسخهَ
وعن يمينك قرّت هذه الجدُرُ

* * *

ما كان فى مصرَ للأهرامِ منزلة
الاّ الخلودَ والاّ أنها أثر
وتلك أهرامكم فى الماء قائمةٌ
فيها الحياةُ حياةُ الشرقِ تدّخرُ
لو كان تسخيرُ فرعونٍ لأمتهِ
فى مثلهنّ لحيْتْ ظلمَه السيَرُ

مصر في أيامه

مِنْ عسكريٍّ وأميٍّ الى ملكٍ
للحربِ والعلمِ عنه يأخذ الزّمنُ

سما بنا وسمونا في الحياةِ به
ونحن لِلمخلصينَ الأهلِ والسّكنُ

فلا يقولوا «غريبٌ» تفخرون به
مصر لمن ماتَ في إحيائِها وطنُ

أحبَّ مصرالى أنْ صار أعرقهم
بيتاً وأرجحهمْ حبًّا اذا وُزِنوا

أفضتْ بعلّتها دونَ الرّجالِ له
إن الطّبيبَ على الأسرار يؤتمَنُ

معاهدُ العلمِ كانت للعلى حرَماً
وللنُّهى كعبةً حجّتْ لها الفِطَنُ

كانت كصومعةِ الوحيِ التي نزلتْ
فيها الشرائعُ والأحكامُ والسُّنَنُ

كانت متى تتل آيات العلوم بها
تنصتْ من الملأ الأعلى لها أُذُنُ

منجمون على الأهرام قد رَصدُوا
رهطاً من النجم بالأهرام يرتهن (١)

مهندسون أطاع النيل أمرَهمُ
فأينما وجَّهوه عُبِّدَ السَّنَنُ (٢)

وزارعون ـ على الجدباء إن غضبوا ـ
مشى بأثماره يستشفع الغُصُنُ

وفى الأطباء من لو شاء معجزهم
عن قوَّة الروح لاستغنى به البَدَنُ (٣)

أين المصانعُ ؟ أينَ المعجزاتُ بها ؟
عندى عن الدور مالا تعرفُ الدِّمَنُ

(١) ذلك أن أضلاع الأهرام وافقت بعض الكواكب فى رصدها أيام محمد على باشا وبذلك أثبتوا أن الأهرام لم توضع على هذا النسق جزافاً (٢) الطريق (٣) أى لاستغنى البدن بهذا الطبيب عن قوة الروح

يا ليتها بقيت ، لو أنها بقيت
ما كانَ للدر في أسلاكه ثمنُ
كانت وملبسُنا منها ومأ كلُنا (١)
واليوم من غيرِ مصرَ المهد والكفنُ

ماضيهم وحاضرنا

فيابن نفسك،لا يابن الألى؛ وكفى
فخراً لدى ذكره الأنساب تفتضحُ
انفض رقادك عن عينيك آونة
وانظر بمصر أخاب القوم أم نجحوا ؟
وألق بسجْل المآقي في مدامعهم
اذا بكوك وكن عوناً لمن متحوا
ان الألى كنتَ بالفسطاط حاضرَهمْ
جدُّوا وأبناؤهم من بعدِهم مزحوا

(١) اشارة الى المصانع التى كانت بمصر

آثارك الغرُّ والطِّرْاس منحيةٌ
سبعين عاماً عليها وهى تتضحُ
يستقبلُ العلمُ منها فى حداثتِهِ
ما ليس من بعده للعِلْمِ منفسَحُ
تاريخُك الجَدُّ أمسى لهوَ قارِئهم
كأنّه قِصَصٌ فى طيّها مُلَحُ
لا يغضبنّك أنْ تلقاه مطّرحاً
فالدرُّ بين حياضِ المزنِ (١) مطّرحُ
ذاكَ الذى خُضِبت كفُّ الترابِ به
دمُ الذين على أوطانِهم ذُبِحوا
كانوا متى ينصب الميزانُ لو وُضعوا
فيه قبالة قومٍ فى العلى رجحوا
لو قستَ فى المجد ماضيهم بحاضِرنا
خلتَ من فتئوا أعداءَ من بَرِحوا

(١) هى البحار

أو لاَ فكيفَ وضعنا كلّ مارفعوا
مِنَ العُلى وسددنا كلّ ما فتحوا

وقفة على آثارهم

بالشرق أيامكم باتت تذكرنا
كما تذكّرنا بالغرب أندلسُ
نمشى على دمنٍ تنحط عن قننٍ
قيرانها كُنسٌ قيعانها دُرُسُ (١)
هوامدٌ مطرقاتٌ صمتها كلِمٌ
ورب خرساءَ عنها أفصحَ الخرس
وللسكوت بها فى الأُذن غمغمةٌ (٢)
قولُ الطلول على الآذان ملتبسُ

(١) الدمن آثار الديار والقنن جمع قنة وهى المكان المرتفع كرأس الجبل والقيران فى الأصل حجارة بارزة في جوانب الجبال واستعيرت هنا للأبنية الضخمة والدرس البالية (٥) الغمغمة الصوت

كيف استقلَّ البلى بعد الأُهول بها
فليسَ فيها مقيماً غيرَه أنَسُ
والجدُّ منقلبٌ رأساً على عَقب
فالنحسُ مبتهجٌ والسعدُ مبتئسُ
اذا سرى بصرى فى ليل وحشتها
يكادُ يخطفهُ من نوركم قبسُ
وكان للملك رنات مردّدة
لم تخلُ مئذنَةٌ منها ولا جرَسُ
يلوحُ منكم على أنقاضِها عِظَمٌ
كالبدر فيه ضياء الشّمس ينعكِسُ
لا تعجبوا لزفيرى إن ذكا شرراً
فكم شجىٍ ذكا فى صدره النّفَسُ
لثمتُ آثارَ ملكٍ اذ لثمت ثرىً
دونَ الشّفاه تمنى أرضه اللّعس[1]

(١) اسمرار فى الشفة

لا تحسبوا انها قد أصبحتْ هَمَلاً
إن القلوب عليها بعدكم حَرَسُ
علّ الليالَي تصفو بعد كدرتها
كم مأتمٍ قام فى آثاره عرسُ

منا الى محمد على

يا غازيَ الجهلِ كم فرّجتَ ملحمةً
عن النُّهى عزّ فيها العلمُ والأدبُ
القومُ فى مصر أعوانٌ عليكَ بها
وأنتَ وحدكَ فيها الجحفل اللجبُ
قد كنتَ للعلم فى الأغلالِ تدفعهم
والموتُ عندهمُ خيرٌ أو الهربُ
حتى رفعتَ مناراً فى السماء لهمْ
تود لو قبستْ من نورهِ الشُّهبُ
سبعونَ عاماً ولا يُبنى لنا أثرٌ
فى الباقيات ولا يُقضى لنا أَرَبُ

رموكَ بالظّلمِ حتى قال قائِلهُمْ
النَّاسُ والأرضُ والأموالُ تُغتَصَبُ

سلبتَهم بعضَ ماصانوا وما ادّخروا
منها وكان عليهم ينفقُ السّلبُ

وما خرجتَ من الدنيا بمغنية
الاجوانحَ فى الأكفانِ تضطرِبُ

لمّا غدوتَ أبا مصرَ الفتاةِ غدتْ
اليكَ كلُّ فتاةٍ وهي تنتسبُ

لاتعرف العجبَ خودٌ فى صواحبها
حتى يكون لها مثلَ الأمير أبُ

* * *

فما أحبّ شبابٌ بعدكمْ وطناً
الاّ ومُدَّ لهُ من حبكمْ سببُ

ولا جرتْ دمعةٌ فى مصرَ داميةٌ
الاّ وبالغيبِ مِن عينيك تنسكِبُ

هتفت فى الغرب باستقلالِها زمناً
بين الزّمانين من آمالها طُنُبُ
فأنتَ أولُ مغرٍ بالسُّهى أملاً
شبابُ مصرَ على آثارهِ دأبُوا
إن شاقَك اليومَ أَنْ تمشى برايتهمْ
فامْسح دموعَك بالأكفانِ تختضبُ

*
* *

فطاحِلُ العِلمِ أُميٌّ يدوخهمْ
وفى البديهة ما لا تشمل الكتبُ
وهل كتبتَ بغيرِ السّيف بيّنةً
أصحفك الهامُ أمْ أقلامُك القُضُبُ
بنيت نفسكَ للدُّنيا وحوزتها
فالحزمُ والعزمُ والتدبيرُ والدأْبُ
ما نمتَ كالنّاس شطرَ العمر ميتته
بل عشتَ أضعاف ما مرّت بك الحقبُ

تمشي الهوينا غفيَّ الطرف غافله
وأنتَ منتبهٌ للدهر منتهبُ
إطراقةٌ منكَ فيها تمّحى دولٌ
ولفتةٌ منكَ فيها الأمر ينقلبُ

الخاتمة

صحائفٌ مِنْ كتاب المَجد أقرأها
على بني أُمَّتي والكاتبون هُمُ
وما سما مِلكٌ إلاّ بأُمّته
لولا رسى دَعمٌ لم ترتفع قممُ
حامتْ حواليه من أجدادِنا اسرٌ
كانت بخيرتها الأيام تعتصم
ترى المقادير تجرى فى مشيئتهم
فالأمر ما أمروا والحكم ما حكموا
زفوا أريكتهم مجلوّة لفتى
مخيلة الملك من عينيه تُرتسم

كانتْ صفائحُنا [1] تقضى صحائِفَنا
واليوم صرنا ولا سيفٌ ولا قلمُ
ومطلِع الشّمس نحن الفاتحون له
وتلك حمرته مِمّا أُريقَ دمُ
ومصر كانت بحمد الله نابهة
بين الممالك خفّاقاً لها عَلَمُ
يتلو بها الفتحُ آياتٍ ، بسامِلها
أسماؤنا ، وعوالينا هي الكَلِمُ
إن يرفع الدّهرُ من عرنينه شمماً
فإنما نحن فى عرنينه الشممُ
ونحن أصحاب ملكٍ لا نضيّمهُ
وإن تزحزح عن جُدرانِه الهَرَمُ
محمّد بدماء الشّعب شيّده
فهل بغير دماء الشّعب ينهدمُ

(١) الصفائحَ السيوف

أوصى بنيهِ ونحن المقسمونَ له
بصونه وله أن يصدق القسمُ

* * *

أنجبتَ شهباً بأفق الملك إن سطعوا
راحت تعثّر فى أذيالها الظُّلَمُ
غُرٌّ متى جنّ ليل أو أضاء ضحىً
أيقنتَ أن عبسوا فى الدّهر أو بَسموا
مِنْ كل أبيضَ لو قِسنا الفرند به
رُدّ الفرندُ علينا وهو متّهمُ
هيامنا بك ملء الدهر صار بهم
يفنى الرجال ويبقى العهدُ والذِمَمُ
ذاتُ القوافى مشت تختال فى حلل
قشيبةٍ حار فى تطريزها القِدَم

جديدةُ النسجِ، وفقُ العصرِ، صانِعةٌ

بأُذنِ سامعِها ما يصنعُ النَّغَمُ

ولستُ ممن قوافِي الشِّعرِ تحكمُهُم

حتى الكلامُ ألسنا فيه نحتكمُ؟

إن المحافلَ باسمِ اللهِ إن بُدئت

فإنها بكَ لا بالمسكِ تُختَتَمُ

— فهرست —

طبعت سنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م